عبرة من التاريخ

في أيام الرشيد

بقلم

حسن خطاب الوكيل

(الامام بالمدرسة الخديوية الاميرية)

« الطبعة الأولى »

سنة ١٣٣٢ — ١٩١٤

« المطبعة الجمالية بحارة الروم — بمصر »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على الرسل الكرام وأصحابهم الهداة الاعلام (وبعد) فقد طلب مني كثير من الاخوان أن ألخص لهم حديثاً حسنا عن خبر الرشيد[1] والبرامكة[2] وسبب توتر العلائق بينهما. وان أتوخى في ذلك الاخبار الصحيحة. لا كل ما جاء مرويا بكل صحيفة. وان أكتب ذلك بعبارة سهلة المنال. روائية المثال. عربية المقال. لا هي بالرواية الخيالية. ولا بالمبالغة القصصية. ولما شرعت في اجابة ماطلب مني وجدت ان المؤرخين قد اختلفوا في السبب الذي دعا الرشيد الى الفتك بجعفر وشيعته الى عدة روايات وهي وان تعددت يرى

(١) هو هارون الرشيد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بويع له بالخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه موسى الهادي سنة ١٧٠

(٢) البرامكة أبناء برمك بن جاماش بن بشتاسف

قارئها ان السبب الحقيق هو لداع سياسي والخوف من الخروج عليه والروايات كلها متقاربة مقبولة سوى ماروى منها بخصوص العباسة(١) أخت الرشيد وزواج جعفر بها فهذه الرواية وان جاءت مروية لكنها بعيدة عن الصواب - وتفصيل الخبر عن حادثة العباسة أخت الرشيد على ماروا الرواة - وان كنا لا نقول مثل قولهم - هو ان الرشيد كان لا يصبر عن جعفر ولا عن عباسة أخته فكان يحضرهما اذا جلس للشراب وذلك بعد ان أعلم جعفرا عن قلة صبره عنه وعنها فقال لجعفر ازوجكها ليحل لك النظر اليها اذا أحضرتها مجلسي وتقدم اليه أن لا يكون منه شيء مما يكون بين الزوجين فزوجها منه على ذلك وكان يحضرهما معه اذا جلس للشراب ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما فيثملان من الشراب وهما شابان فحملت من جعفر فولدت له غلاما ذكيا ثم خافت على نفسها من الرشيد ان علم بذلك فوجهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها الى مكة فلم يزل الامر

---

(١) العباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم

مستورا عن هارون حتى وقع بين عباسة و بين بعض جواريها شر فانهت أمرها وأمر الصبي الى الرشيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من الحلى الذى كانت زينته به أمه فلما حج هارون أرسل الى الموضع الذى كانت الجارية أخبرته ان الصبي به من يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه فلما لحضرن وسأل اللواتى معهن الصبي اخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعة على عباسة فاراد قتل الصبي ثم رجع عن ذلك وكان من عادة جعفر أن يتخذ للرشيد طعاما كلما حج (بعسفان) [1] فيقريه اذا انصرف شاخصا من مكة الى العراق فلما كان فى هذا العام اتخذ جعفر الطعام كما كان يتخذه هنالك ثم ذهب ليدعو الرشيد فاعتذر له ولم يحضر ضيافته وزاد بعض الرواة والغلاة ان الرشيد قتل المولود وقتل العباسة اخته ودفنها فى داره ليلا واستعان على قتلها بمسرور نقمته وعشرة من الخدم وبعد ان قضى عليها ودفنها خشى افشاء السر فقال لمسرور اعط هؤلاء العشرة أجورهم فخرجوا معه فرحين بما أنعم عليهم ملكهم فاخذهم مسرور ووضع كلا منهم فى جراب

(١) عسفان اسم جبل بمكة

ورمى بهم الى البحر فماتوا عن آخرهم . وكان مثل هذه الاخبار حجة لاعداء الاسلام والمسلمين على ان يوقعوا به وباهله وان يتقولوا على أمرائه الاقاويل المفزعة المنفرة منهم ونسوا ان ذلك لا يكون من الرشيد الذى كان يصلى كل يوم مائة ركعة ويحج عاما ويغزو عاما ولقد حدث مرة انه كان يصلى ويقرأ فى صلاته آية (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) فقال له بعض الظرفاء واسمه (ابن أبى مريم) والله ما أدرى لم لا تعبد الذى فطرك . فما تمالك الرشيد ان ضحك وقطع صلاته والتفت الى ابن أبى مريم مغضبا وقال يا ابن أبى مريم فى الصلاة أيضا اياك اياك والقرآن والدين ولك ماشئت بعدهما فأين هذا من قولهم انه كان يجلس للشراب وهو لما علم ان أبا نواس يشرب الخمر حبسه فى ذلك حتى تاب واقلع فى زعمه عن شربها وأين ما تقوله المؤرخون على أخت الرشيد من منصبها فى دينها وأبويها وجلالها وانها بنت عبدالله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة فهى ابنة خليفة اخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة

قريبة عهد ببداوة العرب بعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفحش فاين يطلب الصون والعفاف اذا ذهبا عن مثل عباسة اخت الرشيد وأين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيي وتخلط نسبها العربى بمولى من موالى العجم. والعرب أحرص الناس على حفظ أنسابهم وجعفر قد ملك جده لجدها - وكيف يسوغ للرشيد ان يصهر الى موالى الاعاجم على بعد همته وعظم ابائه وهل يليق بالرشيد أن يتسفل فى النسب لاجل شرابه ان كان كما زعموا عافاه الله من ذلك وما جعفر البرمكى وان أعطى العطايا ووهب الهبات وسارت الركبان بذكره إلا أحد موالى الرشيد أبا عن جد يرجع أصل الجميع الى الفرس وكانوا من مجوسيهم فاسلموا فعينوا وزراء لبنى العباس خالد . فيحيي . فجعفر . وكانت الوزارة لجعفر وأبيه فى أيام الرشيد وكان بايديهما مقاليد الامور فبهم التولية ولهم العزل . ومنهم العطاء والبذل . وضربت لهم أكباد الابل وسارت الركبان بحديثهم فكان لا يمدح مادح الاهم . ولا يقصد قاصد الا ديارهم . ولا يطمع إلا فى خزائنهم فهم أهل الفضل والجود ولقد استوثقت لهم

الامور حتى وانه عد من أولاد يحيي فى خدمة الرشيدمن بين صاحب سيف وصاحب قلم مايربوا على الثلاثين زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب . ودفعوهم عنهابالراح . لمكان أبيهم يحيي من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب فى حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه ياأبت فبذلك أنسوا من الرشيد واستبدوا فى الدولة حتي على الرشيد ولى نعمتهم وبلغ من ذلك أن الرشيد ربما طلب المال فلا يجده فى الوقت الذى يكون صرف ذلك المال لاصحاب القصائد والمدائح وبذلك سرى اليهم حب الذات ودب فيهم دبيب الطمع فى الملك حتى وانهم كانوا يطلقون سراح من يخرج مطالبا للرشيد بالخلافة فخافهم الرشيد على نفسه وملكه فلم يجد مخلصا إلا الايقاع بهم قبل أن يوقعوا به فقتل جعفراً وأذل من بقى منهم وسلبهم ملكهم وأموالهم قبل أن يسلبوه ملكه وحياته فجعلهم سلفا ومثلا للآخرين

فكان حال البرامكة فى تغير الرشيد عليهم من أنفسهم لما انهم كانوا يتهمون الرجال ويأخذونهم بالشك حرصا على إرضاء الرشيد وتقربا اليه فانتقم الله منهم بما لجأوا اليه كما انهم لم

ينفعهم كثرة العطاء والبذل حيث كان ذلك يرضى به أناس معلومون كالمادحين والمستجديين وأما أصحاب النفوس الزكية والاخلاق المرضية فلا يهمهم عطاء ولا بذل. وإنما يرضيهم الانصاف والعدل. زد على ذلك الوشاية والسعاية بالبرامكة من أهل الحقد والحسد اذ بعض ذلك كاف فى الايقاع بهم وان لم يذنبوا ذنبا واحدا. روى ان بعض أولئك الوشاة عمل شعراً وأوعز إلى بعض المغنيين أن يغنيه بين يدي الرشيد احتيالا على إسماعه له فبينا الرشيد فى مجلس أنسه إذ غناه مغن

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد   وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لايستبد

فلما فرغ المغنى قال الرشيد أى والله إني عاجز وتحركت فيه غيرته وثارت نفسه للانتقام نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال

حسن خطاب الوكيل

١

﴿ أول مابلغ الرشيد من خيانتهم ﴾

روى عن أبي محمد بن اليزيدى وكان من أعلم الناس بأخبار القوم قال . . من قال ان الرشيد قتل جعفر بن يحيي بن خالد بغير سبب يحيي [1] بن عبدالله بن حسن فلا تصدقه وذلك ان الرشيد لما احتال على يحيي وأعطاه الامان وأخذه وحبسه عند جعفر دعا به جعفر ليلة من الليالي وحقق معه فى طلبه للخلافة فقال له

يحيي — اتق الله فى أمرى ولا تعرض أن يكون خصمك غدا محمد صلى الله عليه وسلم فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا

جعفر — اذهب حيث شئت من بلاد الله فقد عفوت عنك وصدقتك

يحيي — وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأرد اليك أو الى غيرك

---

(١) هو يحيي بن عبد الله بن حسن أحد دعاة الطالبيين

جعفر — انى مرسل معك من يبلغك مأمنك — ووجه معه من يخفره

٢

﴿ الخبر عند الرشيد ﴾

فعلم بهذه الحادثة أحد أعداء البرامكة فاستأذن على الرشيد فلم يجب طلبه ولم يأذن له فى الدخول فقال

الجاسوس — يا أمير المؤمنين نصيحة فادع بى اليك

الرشيد — لأحد قواده (هرثمة) خذ الرجل اليك واسأله عن نصيحته هذه فسأله هرثمة فأبى الرجل أن يقول له شيئا وقال له هى سر من أسرار الخليفة فأخبر هرثمة الرشيد بذلك فقال له الرشيد لا يبرح الرجل الباب حتى أفرغ له فلما كان الهاجرة انصرف من كان عنده فقال

الرشيد — الى بالرجل (الجاسوس)

الجاسوس — أخلنى يا أمير المؤمنين

الرشيد — يلتفت الى بنيه ويقول لهم انصرفوا يافتيان فوثبوا جميعا وبقى خاقان وحسين حارسه على رأسه — فنظر اليهما الجاسوس .

الرشيد — تنحيا عنى ففعلا ثم قال يخاطب الجاسوس

الرشيد — هات ماعندك

الجاسوس — على أن تؤمنني يامولاى

الرشيد — على أن أؤمنك وأحسن اليك

الجاسوس — كنت بحلوان فى خان من خاناتها فاذا أنا بيحي بن عبدالله فى دراعة صوف غليظة وكساء صوف أخضر غليظ واذا معه جماعة ينزلون اذا نزل ويرحلون اذا رحل ويكونون منه بصدد يوهمون من رآهم انهم لا يعرفونه وهم من أعوانه ومع كل واحد منهم منشور يأمن به ان عرض له

الرشيد — أوتعرف يحي بن عبد الله

الجاسوس — أعرفه قديما وذلك الذى حقق معرفتي به بالامس

الرشيد — فصفه لى

الجاسوس — مربوع أسمر رقيق السمرة أجلح حسن العينين عظيم البطن

الرشيد — صدقت هو ذاك . فما سمعته يقول ؟

الجاسوس — ماسمعته يقول شيئا غير انى رأيته يصلي ورأيت غلاما من غلمانه أعرفه قديما جالسا على باب الخان فلما فرغ

من صلاته أتاه بثوب غسيل فألقاه فى عنقه ونزع جبة الصوف فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر وأنا أرمقه أطال فى الأولتين وخفف فى الآخرتين

الرشيد — لله أبوك لجاد ما حفظت عليه . نعم تلك صلاة العصر وذاك وقتها عند القوم أحسن الله جزاءك وشكر سعيك . فمن أنت

الجاسوس — أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدولة وأصلى من مرو ومولدى بمدينة السلام

الرشيد — فمنزلك بها

الجاسوس — نعم . فأطرق الرشيد مليا يفكر

الرشيد — كيف احتمالك لمكروه تمتحن به فى طاعتى

الجاسوس — أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين

الرشيد — كن بمكانك حتى أرجع . وقام ورجع ومعه كيس فيه ألفا دينار وقال للجاسوس خذ هذه ودعنى وما أدبر فيك . فأخذها الرجل وضم عليها ثيابه

الرشيد — ياغلام - فدخل حسين وخاقان فقال لهما اصفعا ابن اللخناء وأشار الى الجاسوس فما صدقا أن استلماه وصفعاه

نحوا من مائة صفعة

الرشيد — أخرجاه الى من بقى بالدار وعمامته فى عنقه وقولا هذا جزاء من يسعى ببطانة أمير المؤمنين وأوليائه ففعلا ذلك وتحدثوا بخبره ولم يعلم بحال الرجل أحد ولا بما كان ألقى الى الرشيد حتى كان من أمر البرامكة ما كان

٣

﴿ تخوف جعفر من الرشيد ﴾

لما كان ما كان من أمر اطلاق يحيى بن عبد الله وبلغ الخبر الى الرشيد من الجاسوس الذى تقدم حديثه أراد الرشيد أن يتوثق صحة الخبر فدعا بجعفر للغداء معه فلما كان الاكل جعل الرشيد يلاطفه تارة بالحديث وتارة بمدح بعض أصناف الطعام تحية منه الى أن فاجاءه

الرشيد — مافعل يحيى بن عبد الله

جعفر — بحاله ياأمير المؤمنين فى الحبس الضيق والاكبال

الرشيد — بحياتى . فاحجم جعفر عن الجواب وفطن للأمر فقال فى الجواب لا وحياتك ياسيدى ولكن أطلقته وعلمت

انه لا حياة به ولا مكروه عنده

الرشيد — نعم مافعلت ما عدوت ما كان فى نفسى وأسرها فى نفسه . ولما قام جعفر للخروج اتبعه الرشيد بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه وقال قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة ان لم أقتلك — وحدث بعد ذلك انه بينا الرشيد فى مجلسه وعنده جبريل والد بختيشوع طبيبه اذ طلع يحيى بن خالد الوزير الأول ووالد جعفر ومن عادته انه كان يدخل على الرشيد بلا اذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد سلم فرد عليه الرشيد ردا ضعيفا فعلم يحيى ان أمرهم قد تغير

الرشيد — لجبريل — يا جبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا اذن

جبريل — لا . ولا يطمع فى ذلك

الرشيد — فما بالنا يدخل علينا بلا اذن

يحيى — يا أمير المؤمنين قدمنى الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وماهو الا شئ كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى حتى ان كنت لأدخل وهو فى فراشه مجردا حينا وحينا فى بعض ازاره وماعلمت ان أمير المؤمنين كره ما كان

يحب واذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الاذن أو الثالثة ان أمرنى سيدى بذلك ـ فاستحى الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجها وعيناه الى الارض مايرفع اليه طرفه ثم قال ماأردت ماتكره ولكن الناس يقولون .

يقول جبريل لما سمعت جواب الرشيد علمت انه لم يسنح له جواب يرتضيه فاجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى من حينه

ومن الاحوال التى دلت على تغير حال البرامكة ان أحد المسجونين[1] كتب رسالة الى الرشيد يعظه فيها ويذكر له أن يحيى بن خالد وجعفر لا يغنيان عنك من الله شيئاً وقد جعلته يا أمير المؤمنين فيما بينك وبين الله فكيف أنت اذا أوقفت بين يديه فسألك عما عملت فى عباده وبلاده فقلت يارب انى استكفيت يحيى أمور عبادك أتراك تحتج بحجة يرضى بها. فلماقرأ الرشيد الرسالة أمر باحضار يحي بن خالد فلما حضر سأله

الرشيد ـ اتعرف محمد بن الليث

(١) واسمه محمد بن الليث

يحيى - نعم

الرشيد - فاى الرجال هو

يحيى - متهم على الاسلام

الرشيد - شددوا عليه فى السجن . فلما تنكر الرشيد للبرامكة وعرف انهم انما حبسوا مثل محمد بن الليث لغضبهم عليه لا خوفا على الرشيد وانهم عفوا عن يحيى بن عبد الله لرضاهم عنه وحبهم خروجه على الرشيد أمر باخراج محمد ابن الليث من السجن فاخرج

الرشيد - يا محمد أتحبنى

محمد - لا والله يا أمير المؤمنين

الرشيد - تقول هذا

محمد - نعم . وضعت فى رجلى الاكبال . وحلت بينى وبين العيال . بلا ذنب أتيت ولا حدث أحدثت سوى قول حاسد يكيد للاسلام وأهله ويحب الالحاد وأهله فكيف أحبك

الرشيد - صدقت وأمر باطلاقه

الرشيد - يا محمد أتحبنى

محمد - لا والله يا أمير المؤمنين ولكن قد ذهب ما فى قلبى

فأمر الرشيد أن يعطى محمد مائة ألف درهم فأحضرت

الرشيد — أتحبني يامحمد

محمد — أما الآن فنعم قد أنعمت عليّ وأحسنت اليّ

الرشيد — انتقم الله ممن ظلمك وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك

فدخل يحيي بن خالد زائراً عند الرشيد فقام الغلمان له حسب العادة فقال الرشيد لمسرور من الخدم الا يقوموا ليحيي اذا دخل الدار . فلما كان الغد جاء يحيي فلم يقم اليه أحد فاربد لونه وعرف ان أمره قد تغير عند الرشيد

وكان الخدم والحجاب بعد ذلك اذا رأوه أعرضوا عنه وربما استسقى الشربة من الماء فلا يسقونه وإن سقوه فلا يكون ذلك الا بعد أن يدعو بها مرارا

٤

﴿ جعفر وصديقه ﴾

لما كثرت شكاوى الناس من جعفر وأبيه وعرف يحيي وابنه شدة تذمر الناس منهما قال جعفر يوما لصديق له يدعى زيد بن علي يازيد انى قد استربت بأمر هذا الرجل

(الرشيد) وقد ظننت ان ذلك لسابق سبق فى نفسى منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيرى فكنت أنت فارمق ذلك من يومك هذا واعلمنى ما ترى منه

زيد بن على - افعل ذلك

فلما نهض الرشيد من مجلسه خرج زيد بن علىّ مسرعاً حتى صار الى شجر فى طريق جعفر واختفى فيه بدون علم من جعفر ومرّ جعفر ومن معه من الندماء فصاروا يمرون واحداً بعد واحد حتى اذا لم يبق منهم أحد واذا بجعفر قد طلع وقرب من مكان صديقه فلما جاوزه قال

جعفر — اخرج ياصديقى واخبرنى ماعندك

زيد — حتى تعلمنى كيف علمت أنى ههنا

جعفر - عرفت عنايتك بما أعنى به وانك لم تكن لتنصرف أو تعلمنى ما رأيت منه وعلمت انك تكره ان ترى واقفاً فى مثل هذا الوقت . وليس فى طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه

زيد - نعم خطر ذلك ببالى

جعفر - هات ما عندك

زيد - رأيت الرجل (الرشيد) يهزل اذا جددت ويجدّ اذا هزلت (١)

جعفر - كذا هو عندى فانصرف ياحبيبى

ومن كل ماأوردناه يتبين للقارئ ان قتل جعفر والايقاع بالبرامكة انما كان عن خوف الرشيد على ملكه حيث رأى من معاكستهم له وظهورهم بالكرم والعطايا بأكثر مما يعطى هو ففطن لها وخاف الفرس على العرب

٥

﴿ خواطر يحيى وجعفر ﴾

قال سهل بن هارون انى لأحصل أرزاق العامة بين يدى يحيى بن خالد البرمكى داخل سرادقه وهو كان وقتئذمع الرشيد (بالرقة) ويعقد جملا بكفه اذ غشيته سآمة فأخذته سنة فغلبته عيناه فقال ويحك ياسهل طرق النوم شفرى . وأكلت السنة خواطرى . فماذلك

(١) وهذه مسألة أخلاقية ينبغي لنا أن نعرفها فان بعض الناس اذا كره حديث انسان هزل له في موضع جده وجدّ له في هزله ليكيده بذلك

سهل ـ ضيف كريم ان قربته روحك . وان منعته عنتك وان طردته طابك . وان أقصيته أدركك . وان غالبته غلبك فلما سمع يحيى هذا الكلام اطمأن ونام أقل من فواق بكية . أو نزع ركية . ثم انتبه مذعورا فقال ياسهل لامر مّا كان (النوم) والله لقد ذهب ملكنا . وولىّ عزنا . وانقضت أيام دولتنا

سهل ـ وما ذاك أصلح الله الوزير

يحيى ـ كأن منشدا أنشدني

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فأجبته من غير روية . ولا إجالة فكرة

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

وحدث مرة ان جعفرا كان بمنزله يسامر أصحابه وندمانه إذ خطر له خاطر فقال . ليس لدارنا هذه عيب الا ان صاحبها فيها قليل البقاء .. وحدث ان والده يحيى لما حج الحجة الاخيرة التى كانت معها القاضية مع الرشيد خطر له ان يتوب الى الله من ذنوبه ويؤوب اليه وجاءه الخاطر وهو يطوف فجعل يتعلق بأستار الكعبة ويردد التوبة والدعاء ويقول اللهم ذنوبى جمة

عظيمة لا يحصيها غيرك . ولا يعرفها سواك . اللهم ان كنت تعاقبنى فاجعل عقوبتي فى الدنيا. وان أحاط ذلك بسمعى وبصرى ومالى وولدي حتى تبلغ رضاك . ولا تجعل عقوبتى فى الآخرة . اللهم ان كان رضاك فى أن تسلبنى نعمة عندى فاسلبنى - اللهم ان كان رضاك فى أن تسلبنى أهلى وولدى فاسلبنى - اللهم الا الفضل (ابنه) ثم ولى ليمضى فلما قرب من باب المسجد كر مسرعا ففعل مثل ذلك وجعل يقول اللهم انه سمج بمثلى ان يرغب اليك ثم يستثنى عليك اللهم والفضل . فكأن الله اجاب دعاءه فانه لم تمض الا أيام قلائل وكان من أمره وولده ما كان مما سنقصه قريبا فلا حول ولا قوة الا بالله

٦

﴿ تدبير القتل ﴾

بينما السندى بن شاهك جالس يوما اذا بخادم قدم على البريد ودفع اليه كتابا صغيرا ففضه فاذا هو كتاب من الرشيد بخطه فيه «بسم الله الرحمن الرحيم. ياسندي اذا نظرت فى كتابى هذا فان كنت قاعداً فقم وان كنت قائما فلا تقعد

حتى تصير الىّ » فلما قرأ السندي كتاب الرشيد دعا بدوابه ومضى من وقته وكان الرشيد (بالعمر) فوافاه بها. يقول العباس ابن الفضل بن الربيع جلس الرشيد يومئذ فى (الزو) فى الفرات ينتظر السندى وارتفعت غبرة

الرشيد ـ ياعباس ينبغى أن يكون هذا السندى وأصحابه

عباس ـ ياأمير المؤمنين ما أشبه أن يكون هو . وكان هو السندى . فقال له عباس أمير المؤمنين ينتظرك فى (الزو) فنزل السندى عن دابته فأشار اليه الرشيد أن أقبل

السندى ـ نعم يامولاى

الرشيد ـ لمن كان عنده ـ قوموا ولم يبق الا العباس بن الفضل والسندي

الرشيد ـ اخرج عني ياعباس . فخرج

الرشيد ـ للسندى . ادن منى . فدنى منه

الرشيد ـ أتدرى فيما أرسلت اليك

السندى ـ لا والله ياأمير المؤمنين

الرشيد ـ قد بعثت اليك في أمر لو علم به زرّ قميصى رميت به فى الفرات .

الرشيد - ياسندي من أوثق قوادي عندي

السندي - هرثمة يامولاى

الرشيد - صدقت فمن أوثق خدمى عندى

السندي - مسرور الكبير

الرشيد - صدقت امض من ساعتك هذه وجدّ في سيرك حتى توافى مدينة السلام فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك ومرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة فاذا انقطع الرجل (الصوت) فسر الى دور البرامكة فوكل بكل باب من أبوابهم صاحب ربع ومره أن يمنع من يدخل أو يخرج ماخلا باب محمد بن خالد بن برمك حتى يأتيك أمرى - فخرج السندى يركض دابته حتى أتى مدينة السلام فجمع أصحابه وفعل ما أمره به الرشيد فلم يلبث ان أرسل اليه جعفر مقتولا ليصلب هناك فسبحان مغير الأحوال

٧

﴿ ليلة السبت ﴾

لما حج الرشيد سنة ١٨٦ ﻫ وانصرف من مكة الى الحيرة

في محرم سنة ١٨٧ عند انصرافه من الحج فأقام فى قصر عون العبادى أياما ثم شخص فى السفن حتى نزل (العمر) بناحية الأنبار فلما كان ليلة السبت آخر المحرم أراد الرشيد أن يستريح من تهديدات آل برمك قبل ان يحيطوا بملكه فلاطف جعفرا طول نهار الجمعة وصرفه الى منزله وانفرد وحده يفكر فى الأمر فنادى مسرورا خادمه وسيافه وحماد بن سالم وأمرهما أن يذهبا فى جماعة من الجند خفية وان يأتوه بجعفر البرمكي الى داره ثم ليأتى مسرور اليه برأسه بلا مراجعة ولا كلام وقال لمسرور احذر ان تخالفنى فتهلك

مسرور — لو أمرتنى بقتل نفسى لفعلت

الرشيد — اذهب الى جعفر بن يحيى وجئنى برأسه الساعة فوجم مسرور لايحير جوابا . —

الرشيد — مالك ويلك

مسرور — الأمر عظيم يامولاى وددت لو أني مت قبل وقتى هذا

الرشيد — امض لأمري ودع المخالفة — فمضى مسرور من ليلته وساعته الي أن وصل الى باب جعفر البرمكي وكان الوقت

وقت منادمة وصفاء ـ وعند صفو الليالي يحدث الكدر ـ فلما جاء مسرور الى الباب سمع صوت مغن يغني ويقول

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق أو يغادي
وكل ذخيرة لابد يوما وان بقيت تصير الى نفاد
ولو يفدى من الحدثان شئ فديتك بالطريف وبالتلاد

جعفر ـ يامسرور سررتني باقبالك وسؤتني بدخولك من غير اذن

مسرور ـ الأمر أكبر من ذلك ـ جئت للأمر الذى قاله هذا (وأشار الى المغنى) أجب أمير المؤمنين فلما سمع جعفر هذا الكلام ماوسعه الا ان توسل الى مسرور ليجعله فى حل حتى يدخل فيوصى وأراد جعفر بذلك أن يفر من جهة أخري ويدعو الى ثورة عامة إذ له اشياع كثيرون لو علموا بما يحدث له لقاموا على بني العباس فداء لجعفر

مسرور ـ أما الدخول فلا سبيل اليه أوص بما شئت ـ فتقدم جعفر فى وصيته بما أراد وأعتق مماليكه . وبينا هو على ذلك إذ أتت رسل الرشيد تستحث مسرور على الاسراع به فأخبره

(١) الشعر لبشار بن برد والغناء لابي ذكار وكلاهما مكفوف البصر

مسرور وأخرجه بعنف حتى أتى به منزل الرشيد فحبسه وقيده بقيد حمار ... ودخل الى الرشيد وأخبره بحضوره

الرشيد ـ لمسرور . ائتنى برأسه .

مسرور ـ لجعفر . قد أمرنى أمير المؤمنين برأسك

جعفر ـ ياأبا هاشم الله الله دافعه فى أمرى مرة أخرى أوخذنى اليه

مسرور ـ للرشيد . انه يقول أن تحضره عندك

الرشيد ـ لا . لأنه يعلم إن وقعت عينى عليه لم أقتله . ائتنى برأسه

مسرور ـ لجعفر . لم يرض أمير المؤمنين

جعفر ـ عد اليه هذه المرة فان لم يقبل فافعل ما أمرك

مسرور ـ للرشيد . يامولاى انه .... فما أتم كلمة حتى رماه الرشيد بعمود وقال له نفيت من المهدى ان لم تأتني برأسه لأرسلن اليك من يأتينى برأسك أولا ثم برأسه آخرا ـ فرجع مسرور فوجد جعفرا يصلى فلم يمهله وقطع رأسه ودخل بها إلى الرشيد ووضعها بين يديه

٨

﴿ الخبر عند يحيي بن خالد البرمكي ﴾

بينا يحيي بن خالد فى داره وعنده سهل بن هارون وهما يكتبان ويقضيان أمور الخاصة والعامة من أموال . وقضاء وخراج . واذا برجل جاء من أقصى المدينة يسعى حتى ارتمى مكبا عليه فرفع يحيى رأسه وقال للرجل (مهلا ويحك ما اكتتم خير ولا استتر شر)

الرجل — قتل أمير المؤمنين جعفراً الساعة

يحيى — أو قد فعل

الرجل — نعم

سهل — فما زاد يحيى أن رمى القلم من يده وقال ـ هكذا تقوم الساعة ـ ثم جاءت الحرس والجند وأخذوا كل من فى الدار الاهل والاولاد والذرية إلى بيت الرشيد ومعهم سهل بن هارون مساعد يحيى . فلما رأي سهل انه ذاهب معهم عمد إلى لباسه فلبس ثياب الاحزان وخرج وهو يقول . اللهم ارحنى بالسيف والحقنى بجعفر ـ فلما دخلوا عليه عرف الرشيد الزعر من سهل بن هارون وشخوصه إلى السيف المشهور ببصره

الرشيد ـ إيهاً ياسهل . من غمط نعمتى واعتدى وصيتى وجانب موافقتى أعجلتـه عقوبتى

سهل — لايعرف جوابا ويتلعثم من الخوف والفزع

الرشيد ـ يفرخ روعك . ويسكن جأشك . وتطيب نفسك وتطمئن حواسك . فان الحاجة اليك . قربت منك . وأبقت عليك . بما يبسط منقبضك . ويطلق معقولك . فاقتصر على الاشارة دون اللسان فانه الحاكم الفاصل . والحسام الناصل — وأشار الى مصرع جعفر وقال

من لم يؤدبه الجميـ ـل ففى عقوبته صلاحه

سهل — لم يجد جوابا غير انه تقدم وقبـل رجل الرشيد .

الرشيد ـ إذهب فقد أحللتك محل يحيى ووهبتك ماضمته أبنيته وما حواه سرادقه فاقبض الدواوين واحصى جباءه وجباء جعفر لنأمرك بقبضه انشاء الله . فلما سمع سهل بن هارون هذا الكلام خرج كانه نشرعن كفن وأخـرج من حبس فأحصى جباءهما فوجده عشرين ألف ألف دينار ثم قفل راجعا إلى بغـداد وفرق البريد إلى الامصار . بالذى صار

٩

﴿ ما بعد القتل ﴾

لما نفذ أمر الرشيد فى جعفر وولى الوزارة سهل بن هارون أرسل الرشيد من ليلته من أحاط بيحيى وجميع ولده ومواليه ومن كان منهم بسبيل فلم يفلت منهم احد وحبس يحيى فى منزله وابنه الفضل في ناحية من منازل الرشيد ووجه من ليلته رجاء الخادم الى الرقة فى قبض أموالهم وأخذ وكلائهم ولما أصبح أرسل بجثة جعفر إلى السندى بمدينة السلام فبينا السندى فى مجلسه اذ ارتفعت غبرة فاذا الجند وبعض القواد (شعبة الجفتانى وهرثمة بن أعين وابراهيم بن حميد) ومعهم كتاب إلى السندى وجثة جعفر محمولة على بغل بلا اكاف مضروب العنق فأخذ السندى الكتاب فاذا فيه ياسندى قد بعثنا اليك بجثة جعفر فاشطره نصفين واصلبه على ثلاثة جسور (١) ففعل السندى ما أمره به الرشيد - ولما كان الصباح أمر الرشيد بقتل أنس بن أبى شيخ يوم قدومه الى الرقة

---

(١) وهنا يلاحظ على الرشيد فعله هذا اذ لا مندوحة له فيه ان كان جعفر قد أخطأ فقد قتل فليدفن وكفى

وكان الداعى الى قتله ان عبد الله بن مصعب كان على خبر الناس للرشيد فأخبره عن أنس انه كان على الزندقة ولكن المتبادر انه لم يقتل على الزندقة وانما قتل على ولائه للبرامكة لقرينة قتله صبيحة جعفر ولقول بعض المؤرخين وكان من أصحاب البرامكة . ولما جيئ بأنس من الحبس دار بينه وبين الرشيد كلام طويل فأخرج الرشيد سيفا من تحت فراشه وأمر أن تضرب به عنقه وجعل يتمثل ببيت قيل في قتل أنس قبل ذلك

تلمظ السيف من شوق الى أنس

فالسيف يلحظ والاقدار تنتظر

ثم ضربت عنقه فسبق السيف الدم فقال الرشيد رحم الله عبد الله بن مصعب وهو ممن حرض الرشيد على قتل أنس والبرامكة ـ أما جعفر فلم يزل مصلوبا حتي أراد الرشيد الخروج الى خراسان فلما نظر الى رمة جعفر التفت الى السندى فقال ينبغى أن يحرق هذا ـ فقال له عبد الملك بن الفضل لقد عظم ذنب لم يسعه عفو أمير المؤمنين — فاجابه الرشيد من يرد غير مائه يصدر بمثل دائه . ومن أراد فهم ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحلته .

ومضى الرشيد مسافرا فلما فصل عن المدينة أراد السندي أن يتم ما أمره به فجمع شوكا وحطبا وأحرق جثة جعفر[(١)]

١٠

﴿ الرثاء ﴾

ليكفنا ما سطرناه ولنترك كل الحوادث المحزنة ونطوى الحديث خير لنا من بسطه والله يتولى السرائر . اذ الكل اليه سائر .

ولما وصل خبر قتل جعفر وحبس يحيى وجميع الاسرة الى الناس كتب الى يحيى فى السجن بعض أصدقائه يعزيه بفقد ولده والحال التى صار اليها فكتب اليه يحيى (انا بقضاء الله راض . وبالخيار منه عالم . ولا يؤاخذ الله العباد الا بذنوبهم . وما ربك بظلام للعبيد . وما يعفو الله أكثر والحمد لله) وقال له أحد أصحابه قد قتل أمير المؤمنين ابنك فاجابه كذلك يقتل ابنه . فقال له وخربت ديارك . قال كذلك تخرب ديارهم ـ هذا وقد كان قتل جعفر فى ليلة

---

(١) فكانوا بطانة سوء لا يراجعونه في شر يأمرهم به وربما منعوا الخير عن مستحقيه . ولو أن حول الرشيد رجالا لقالوا له يدفن ولا يصلب ولا يحرق — أحرقهم الله بناره ومن على شاكلتهم في كل زمان (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا)

السبت أول ليلة من صفر سنة ١٨٧ هـ وهو ابن سبع وثلاثين سنة وكانت الوزارة اليهم سبع عشرة سنة فنعاه الرقاشي فقال

أيا سبت يا شر السبوت صبيحة
ويا صفر المشؤوم ما جئت أشأما
أتى السبت بالأمر الذي هد ركننا
وفي صفر جاء البلاء مصمما

وقال أبو نواس

الآن استرحنا واستراحت ركابنا
وامسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد أمنت من السرى
وطي الفيافي فدفدا بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر
ولن تظفري من بعده بمسوّد
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي
وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفا برمكيا مهنداً
أصيب بسيف هاشمي مهند

وفيهم يقول

إن يغدر الزمن الخؤن بنا فقد
غدر الزمان بجعفر ومحمد
حتي اذا وضح النهار تكشفت
عن قتل أكرم هالك لم يلحد
والبيض لولا انها مأمورة
مافلّ حد مهند بمهند.
ياآل برمك كم لكم من نائل
وندا كعد الرمل غير مصرّد
ان الخليفة لايشكّ أخوكم
لكنه فى برمك لم يولد
نازعتموه رضاع أكرم حرة
مخلوقة من جوهر وزبرجد
ملك له كانت يد فياضة
أبداً تجود بطارف وبتلد
كانت يداً للجود حتى غلها
قدر فاضحى الجود مغلول اليد

وقال أبو العتاهية

قولا لمن يرتجي الحياة اما
في جعفر عبرة ويحياه
كانا وزيري خليفة الله ها
رون هما ماهما خليلاه
فذاكم جعفر برمته
في حالق رأسه ونصفاه
والشيخ يحيى الوزير أصبح قد نحاه عن نفسه وأقصاه
شتت بعد التجمع شملهم فأصبحوا في البلاد قد تاهوا
كذاك من يسخط الاله بما يرضى به العبد يجزه الله
سبحان من دانت الملوك له أشهد أن لا إله إلا هو
طوبى لمن تاب بعد غرته فتاب قبل الممات طوباه

﴿ وقال دعبل راثيا ﴾

ولما رأيت السيف جلل جعفرا ونادى مناد للخليفة في يحيي
بكيت على الدنيا وأيقنت انما قصارى الفتي يوما مفارقة الدنيا

﴿ وقال سليمان الأعمى راثيا ﴾

هدا الخالون عن شجوى وناموا — وعيني لا يلائمها منام
وما سهرى بأنى مستهام — اذا سهر المحب المستهام
ولكنّ الحوادث أرّقتني — في أرق اذا هجع النيام
أصبت بسادة كانوا عيونا — بهم نسقى اذا انقطع الغمام
فقلت وفى الفؤاد ضريم نار — وللعبرات من عيني انسجام
على المعروف والدنيا جميعا — ودولة آل برمك السلام
جزعت عليك يافضل بن يحيى — ومن يجزع عليك فلا يلام
هوت بك أنجم المعروف فينا — وعز بفقدك القوم اللئام
وما ظلم الاله أخاك لكن — قضاء كان سببه اجترام
عقاب خليفة الرحمن فخر — لمن بالسيف صبحه الحمام
عجبت لما دهاك فضل بن يحيى — وما عجبي وقد غضب الامام
جرى فى الليل طائرهم بنحس — وصبّح جعفراً منه اصطلام
ولم أر قبل قتلك يا ابن يحيى — حساما قدّه السيف الحسام
برين الحادثات له سهاما — فغالته الحوادث والسهام
ليهن الحاسدين بأن يحيى — أسير لايضيم ويستضام
وان الفضل بعد رداء عز — غدا ورداؤه ذال ولام

فقل للشامتين به جميعا ... لكم أمثالها عام فعام
أمين الله فى الفضل بن يحيى ... رضيعك والرضيع له ذمام
أبا العباس ان لكل هم ... وان طال انقراض وانصرام
أرى سبب الرضاء له قبول ... على الله الزيادة والتمام
وقد آليت فيه بصوم شهر ... فان تم الرضا وجب الصيام
وقد آليت معتذراً بنذر ... ولى فيما نذرت به اعتزام
بأن لا ذقت بعدكم مداما ... وموتى أن يفارقنى المدام
أألهو بعدكم وأقر عينا ... علىّ اللهو بعدكم حرام
وكيف يطيب لى عيش وفضل ... أسير دونه البلد الشآم
وجعفر ثاويا بالجسر أبلت ... محاسنه السمائم والقتام
أمر به فيغلبنى بكائى ... ولكن البكاء له اكتتام
أقول وقمت منتصباً لديه ... الى ان كاد يفضحنى القيام
أما والله لولا خوف واش ... وعين للخليفة لا تنام
لثمنا ركن جذعك واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلام

هذا وكان جعفر على ذكاء نادر وبلاغة عالية . فمن ذلك انه وقّع مرة فى قصة محبوس (لكل أجل كتاب) وآخر عفا عنه فقال

(العدل أوقعه والعفو أطلقه) وكتب مرة لبعض عماله وكان الناس قد أكثروا من شكواه اليه فقال (قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فاما عدلت . وإما عزلت) وكتب مرة لرجل شكا اليه بعض خدمه (خذ باذنه ورأسه فهو مالك) ومثل مرة عن رجل محبوس فقال (الجناية حبسته والتوبة تطلقه) وكتب إلى قوم يبشرهم بالعدل (عين الخلفية تكلؤكم ونظره يعمكم) وكتب لرجل سأل ولاية يتولاها (لا أولى بعض الظالمين بعضاً) وجاءه رجل طلب منه مالا وقد أعطاه مراراً (دع الضرع يدرّ لغيرك كما در لك) ومما يدل على رجحان عقله وحله للمعضلات حادثة كانت فى أيام الرشيد فى حين الرضا عن جعفر وأبيه

بينا جعفر فى منزله اذ بلغه أن الرشيد مغموم لان منجما يهوديا زعم له انه يموت فى تلك السنة وأن اليهودى فى يده فركب جعفر إلى الرشيد فرآه شديد الغم فقال جعفر لليهودى أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت إلى كذا وكذا يوما

اليهودي — نعم

جعفر — وأنت كم عمرك

اليهودى — كذا وكذا أمداً طويلا . فقال جعفر للرشيد

أقتله حتى تعلم انه كذب فيما زعم لك فامر الرشيد بقتله وصلبه وزال ما كان عليه من الهم والغم فلما صلب المنجم مر به اشجع السلمى فقال فى ذلك شعرا

سل الراكب الموفى على الجذع هل رأى
مراكبه نجم بدا غير أعور

ولو كان نجما مخبراً عن منية ... لأخبره عن رأسه المتحير
يعرفنا موت الامام كأنه ... يعرفنا أبناء كسرى وقيصر
أتخبر عن نحس لغيرك شؤمه ... ونجمك بادى الشر يا شر مخبر

١١

(واش بأبيه)

وكان ابراهيم بن عثمان بن نهيك كثيرا مايذكر جعفر بن يحيى والبرامكة ويبكى عليهم بكاء مراً الى أن خرج من حد البكاء ودخل فى باب طالبي الثأر فكان اذا خلا بجواريه شرب حتى اذا قوى عليه النبيذ قال ياغلام ـ سيفى ذا المنية ـ (سماه بذلك) فيجيئه غلامه بالسيف فينتضيه ويقول واجعفراه واسيداه والله لاقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك عن قليل ـ فلما اكثر هذا من فعله وشى به ابنه عثمان الى الفضل بن الربيع فدخل الفضل وأخبر الرشيد فقال أدخله الىّ

الرشيد — ماالذي قال الفضل عنك

عثمان — أبي يقول كذا وكذا

الرشيد ـ فهل سمع هذا أحد معك

عثمان ـ خادمه نوال

الرشيد ـ إلى بنوال خادمكم وليدخل وحده . فلما حضر سأله

الرشيد — ما الذي قال سيدك

نوال — انه اذا شرب يقول وبيده السيف مسلول لاقتلن قاتلك ياجعفر ولا ثأرن لك قريبا وحصل منه ذلك غير مرة

الرشيد وحده — ما يحل لى أن أقتل وليا من أوليائى بقول غلام وخصى لعلهما تواصيا على هذا لمنافسة الابن على المرتبة ومعاداة الخادم لطول الصحبة . وترك الرشيد ذلك أياما ثم أراد أن يمتحن ابراهيم (المتهم) بن عثمان بمحنة تزيل الشك عن قلبه والخاطر عن وهمه — فدعا الفضل بن الربيع فقال له الرشيد اني أريد محنة ابراهيم بن عثمان فيما رفع ابنه وخادمه عليه فاذا رفع الطعام فادع بالشراب [1] وقل له أجب أمير المؤمنين

(١) (المراد بالشراب هنا ليس هو الخمر وانما شراب الرشيد هو نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيه معروفة وأما الخمر الصرف

لينادمك فاذا شرب فاخرج وخلني واياه [1] فلما كان الشراب نهض الفضل بن الربيع ليقوم فقام معه ابراهيم بن عثمان فقال له الرشيد مكانك يا ابراهيم فقعد فلما طابت نفسه واطمأنت اومأ الرشيد إلي الغلمان فتنحوا عنه ثم قال له

الرشيد ـ ياابراهيم كيف أنت وموضع السر منك

ابراهيم ـ ياسيدى انما أنا كأخص عبيدك . وأطوع خدمك

الرشيد ـ ان فى نفسى أمراً أريد أن أودعكه وقد ضاق صدرى به وأسهرت به ليلى

ابراهيم ـ يا سيدي اذا لا يرجع عنى اليك أبداً وأخفيه عن جنبي أن يعلمه و نفسى أن تذيعه

الرشيد ـ ويحك إني ندمت على قتل جعفر بن يحي ندامة ما أحسن أن أصفها فوددت أنى خرجت من ملكي وانه كان بقى لى فما وجدت طعم النوم منذ فارقته . ولا لذة العيش منذ قتلته .

فلا سبيل الى اتهامه بها)

(١) (المراد هنا من شرب لا انه اذا سكر بل اذا انتقش من الشراب المفتى فيه ودل ذلك على عدم التكليف)

ابراهيم — رحم الله أبا الفضل (جعفر) وتجاوز عنه والله ياسيدى لقد أخطأت فى قتله وأوطئت العشوة فى أمره وأين يوجد فى الدنيا مثله وقد كان منقطع القرين فى الناس أجمعين دينا ودنيا ثم أجهش بالبكاء والنحيب

الرشيد — قم عليك لعنة الله يا ابن اللخناء — فيقوم ابراهيم وما يعقل موضع قدمه فلما دخل داره لقى أمه فقال لها

ابراهيم — ياأم ذهبت والله نفسى

أم ابراهيم — كلا ان شاء الله وما ذاك يابنى

ابراهيم — ان الرشيد امتحننى بمحنة والله لو كان لى ألف نفس لم أنج بواحدة منها . ولم تمض على هذه الحادثة الا أيام قلائل حتى دخل عليه ابنه (الواثى) وضربه بالسيف فقتله . ولعل ذلك بايعاز من الرشيد وهو المتبادر فيالعقوق الابناء بقتل الاباء — هذا ولم تزل حال البرامكة فى سجونهم لم يفرق بينهم ولم يزادوا على ماهم عليه إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح (أحد أقاربه وعماله) فعمهم بالتثقيف بسخطه وجدد له ولهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم وأساء جوارهم

١٢

﴿ محاكمة عبد الملك ﴾

بينما الرشيد يسير وفى موكبه عبد الملك بن صالح أحد عماله وأقاربه اذهتف به هاتف (ناصح فى زعمه) وهو يساير عبد الملك فقال (الهاتف) ياأمير المؤمنين طأطئ من إشرافه وقصر من عنانه . واشدد من شكائمه . والا أفسد عليك ناحيته

الرشيد ـ لعبد الملك — مايقول هذا ياعبد الملك

عبد الملك — مقال باغ . ودسيس حاسد . ياأمير المؤمنين

الرشيد — صدقت . نقص القوم ففضلتهم وتخلفوا وتقدمتهم حتى برزشأوك . فقصر عنه غيرك . ففى صدورهم جمرات التخلف . وحزازات النقص

عبد الملك ـ للرشيد ـ لا أطفأها الله وأضرمها عليهم حتى تورثهم كمدا دائما أبدا — وكان لعبد الملك هذا ابن يقال له عبد الرحمن بن عبد الملك ولشهرته كان يكنى به عبد الملك ولعبد الملك فى ديوانه الذى يعمل فيه للرشيد كاتب اسمه قمامة فاتفق عبد الرحمن وقمامة على أن يسعيا عند الرشيد بأبيه عبد الملك وفعلا طلبا الاذن بالدخول عند الرشيد ولما حضرا عنده

قال لهما ماوراءكما قالا ان عبد الملك بن صالح يطلب الخلافة ويطمع فيها فأمر الرشيد أن يحبس عبد الملك عند الفضل بن الربيع فقبض عليه وحبس بوشاية ابنه وكاتبه وبعد مدة من الايام عقد له الرشيد مجلسا لمحاكمته فأحضر فى الجلسة

الرشيد - لعبد الملك - أكفراً بالنعمة وجحوداً لجليل المنة والتكرمة ياعبد الملك

عبدالملك - ياأمير المؤمنين لقد بؤت إذاً بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وما ذاك إلا بغي حاسد نافسنى فيك مودة القرابة وتقديم الولاية . إنك ياأمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته . وأمينه على عترته . لك عليها فرض الطاعة — وأداء النصيحة . ولها عليك العدل فى حكمها . والتثبت فى حادثها . والغفران لذنوبها .

الرشيد - اتضع لى من لسانك وترفع لى من جنانك . هذا كاتبك قمامة يخبر بغيك وفساد نيتك فاسمع كلامه

عبد الملك - أعطاك ما ليس فى عقده ولعله لا يقدر أن يبهتنى عالم يعرفه منى .

الرشيد - احضروا قمامة . فحضر

الرشيد - ياقمامة تكلم غير هائب ولا خائف

قمامة - أقول انه عازم على الغدر بك والخلاف عليك . .

عبد الملك - أهو كذاك ياقمامة

قمامة - نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين

عبد الملك - للرشيد . كيف لا يكذب على قمامة من خلفى وهو يبهتنى فى وجهى

الرشيد - لعبد الملك . وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن احتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك . فبم تدفعهما عنك

عبد الملك - هو مأمور . أو عاق مجبور . فان كان مأموراً فمعذور . وان كان عاقا ففاجر كفور . أخبر الله عز وجل بعداوته وحذر بقوله « ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم »

الرشيد - أما أمرك فقد وضح ولكنى لا أعجل حتى أعلم الذى يرضى الله فيك فانه الحكم بينى وبينك .

عبد الملك - رضيت بالله حكماً وبامير المؤمنين حاكما فانى أعلم انه يؤثر كتاب الله على هواه . وأمر الله على رضاه - فقام

الرشيد واعاده إلى السجن على أن يعقد له مجلسا آخر وأراد الرشيد بتأخيره إلى جلسة أخرى حتى يرسل العيون والجواسيس لعله يعلم صدق ما سمع فارسل إلى يحيى بن خالد البرمكي رسولا من عنده يسأل عن أحوال عبد الملك فقال له يقول لك أمير المؤمنين ان عبد الملك بن صالح أراد الخروج على ومنازعتى فى الملك وقد علمت ذلك فاعلمنى ماعندك فيه. فانك ان صدقتنى أعدتك إلى حالك.

يحيى بن خالد ـ للرسول ـ قل لأمير المؤمنين يحيى يقول لك والله يا أمير المؤمنين ما أطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكى. وسلطانك سلطانى. والخير والشر كان فيه علىّ ولى فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع فى ذلك منى. وهل كنت اذا فعلت ذلك به يفعل بى أكثر من فعلك أعيذك بالله أن تظن بى هذا الظن ولكنه كان رجلا محتملا يسرني أن يكون فى أهلك مثله. فوليته لما أحمدت من مذهبه: وملت اليه لأدبه واحتماله ـ فرجع الرسول وأخبر الرشيد بما حلف وقال. فأعاده اليه ثانيا وقال يقول لك أمير المؤمنين ان أنت لم تقر عليه قتلت

الفضل ابنك (١)

مسرور – ليحي بن خالد – يقول لك مولاى ان لم تقر عليه قتلت الفضل ابنك

يحي – قل لمولاك أنت مسلط علينا فافعل ما أردت على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لى فبم يدخل الفضل فى ذلك .

مسرور – للفضل – قم فانه لا بد لى من انفاذ أمر أمير المؤمنين فيك . فلم يشك الفضل انه قاتله فودع أباه وآخر ما قال لأبيه ياأبت ألست راضيا عنى

يحيى والده – بلى فرضى الله عنك . وخرج مودعا له آخر الوداع فقال لمسرور قل لمولاك يحيى يقول لك يقتل ابنك مثله . وخرج مسرور وبيده الفضل ليقبره بكلمة يفوه بها الرشيد فلما مثل بين يديه ينتظر أمره قال ما قال لك يحيي هذه المرة

مسرور – قال لى قل لمولاك يقتل ابنك مثله فغضب الرشيد ثم قال لمسرور كيف . أعد على القول

مسرور – قال لى قل لمولاك يقتل ابنك مثله

(١) والرسول هو مسرور قاطع رقاب القوم ونقمة من نقمات الرشيد

الرشيد ـ لمسرور ـ اطلق الفضل ولا تفعل . قد خفت والله قوله لأنه قل ما قال لى شيئاً الا رأيت تأويله ـ ولكن لم ينفع الرشيد حذره بل قتل ولده محمد الأمين فى جعفر وصح قول يحيى ومن الغريب انه قتل بفتنة المأمون وهو أخوه فسبحان الله

١٣

(الجلسة الثانية لعبد الملك)

الرشيد ــ هاتوا عبد الملك من السجن لتمام محاكمته

عبد الملك ــ السلام عليك يا أمير المؤمنين فلم يرد عليه الرشيد السلام

عبد الملك ــ ليس هذا يوما احتج فيه ولا أجاذب منازعا وخصما

الرشيد ــ ولم

عبد الملك ـ لان أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره

الرشيد ـ وما ذاك

عبد الملك ـ لم ترد علىّ السلام . انصف نصفة العوام .

الرشيد ـ السلام عليكم اقتداء بالسنة وايثارا للعدل

واستعمالا للتحية.

ثم التفت الرشيد الى سليمان بن جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبدالملك بن صالح

(أريد حياته ويريد قتلى) « البيت »

ثم قال والله لكانى أنظر الى شؤبوبها قد همع. وعارضها قد لمع. وكأنى بالوعيد قد أورى نارا تسطع. فاقلع عن براجم بلا معاصم. ورؤوس بلا غلاصم. فمهلا مهلا في والله سهل لكم الوعر. وصفا لكم الكدر. وألقت اليكم الامور أثناء أزمتها. فنذار لكم نذار. قبل حلول داهية خبوط. باليد. لبوط بالرجل

عبد الملك ـ اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيته التى استرعاك. ولا تجعل الكفر مكان الشكر. ولا العقاب موضع الثواب. فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم. وتركت عدوك مشتغلا. فالله الله فى ذى رحمك ان تقطعه بعد ان بلته بظن أفصح الكتاب لى بعضه. أو ببغي باغ ينهس اللحم ويالغ الدم فقد والله سهلت لك الوعور. وذللت لك الامور. وجمعت على

طاعتك القلوب فى الصدور . فكم من ليل تمام فيك كابدته . ومقام ضيق لك قمته . كنت فيه كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته بنانى ولسانى وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى وزحل

الرشيد ـ أما والله لولا الابقاء على بنى هاشم لضربت عنقك وما أنت لصالح

عبد الملك ـ فلمن

الرشيد ـ لمروان الجعدى

عبد الملك ـ ما أبالى أى الفحلين غلب علىّ

الرشيد ـ ردوه الى السجن حتى أنظر فى أمره

ولما أعيد عبد الملك الى السجن دخل عبد الله بن مالك عند الرشيد

عبد الله بن مالك ـ أفى اذن انا فأتكلم

الرشيد ـ تكلم

عبد الله بن مالك ـ لا والله العظيم يا أمير المؤمنين ما علمت عبد الملك الا ناصحا فعلام حبسته

الرشيد ـ ويحك . بلغنى عنه ما أوحشنى ولم آمنه أن

يضرب بين ابنى هذين (يعنى الامين والمأمون) فان كنت ترى ان نطلقه من الحبس أطلقناه

عبدالله بن مالك — اما اذ حبسته يا أمير المؤمنين فلست أري فى قرب المدة أن تطلقه ولكن أرى أن تحبسه محبسا كريما يشبه محبس مثلك مثله

الرشيد — افعل ذلك — الىّ بالفضل بن الربيع فحضر

الرشيد — للفضل . امض الى عبدالملك فى محبسه فقل له انظر ما تحتاج اليه فى محبسك فطلب أشياء فأمر بها وأحضرت له — ومازال محبوساحتي توفى الرشيد وأطلقه محمد الأمين وعقد له على الشام فكان مقيما بالرقة وجعل لمحمد عهدالله وميثاقه لئن قتل محمد وهو حى لايعطى المأمون طاعة أبدا فمات قبل محمد فدفن فى دار من دور الامارة فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلي ابن له أن حوّل أباك من داري فنبشت عظامه وحولت الى قبر آخر

ثم ظفر الرشيد بعد ذلك بيحيي بن عبد الله بن حسن وزجه فى السجن وحاكمه كما حاكم عبدالملك بن صالح

١٤

﴿ محاكمة يحيى بن عبد الله ﴾

حدّث الضبي ان شيخا من النوفليين قال دخلنا على عيسى بن جعفر وقد وضعت له وسائد بعضها فوق بعض وهو قائم متكئ عليها واذا هو يضحك من شئ في نفسه متعجباً منه - فقلنا ما الذي يضحك الامير أدام الله سروره. قال لقد دخلني اليوم سرور ما دخلني مثله قط. فقلنا تمم الله للأمير سروره وزاده سرورا فقال لهم والله لأحدثكم به الا قاعدا واتكأ على الفراش وهو قائم فقال كنت اليوم عند أمير المؤمنين الرشيد فدعا بيحيى بن عبد الله فاخرج من السجن مكبلا في الحديد وعنده بكار بن عبد الله بن مصعب وكان بكار شديد البغض لآل أبي طالب وكان يبلغ الرشيد عنهم ويسيئ بأخبارهم وكان الرشيد ولاه المدينة وأمر بالتضييق عليهم - فلما دعى بيحيى وأحضر قال له

الرشيد - هيه هيه (متضاحكا) وهذا يزعم أيضا انا سممناه

يحيى - ما معنى يزعم هاهو داء لساني « وأخرج لسانه

أخضر مثل السلق »

فتربد هارون واشتد غضبه وتحير فى أمره

يحيى - ياأمير المؤمنين ان لنا قرابة ورحما ولسنا بترك ولا ديلم - يا أمير المؤمنين إنا وأنتم أهل بيت واحد فأذكرك الله وقرابتنامن رسول الله صلى الله عليه وسلم علام تحبسنى وتعذبنى؟ فلما سمع الرشيد مقاله رق له وهم بالعفو عنه فما كان من عبدالله الزبيرى الا ان أقبل على الرشيد فقال - لا يغرك كلام هذا فانه شاق عاص وانما هذا منه مكر وخبث. انّ هذا أفسدعلينا مدينتنا وأظهر فيها العصيان فما أتم كلامه حتى أجابه يحيى غير مبال ولا مستأذن من الرشيد فقال - أفسدعليكم مدينتكم ومن أنتم عافاكم الله

الزبيرى - هذا كلامه قدامك فكيف اذا غاب عنك - يقول لى ومن أنتم استخفافا بنا

يحيى - نعم ومن أنتم رحمكم الله - يقول ابو جعفر فوالله ما تمالك الرشيد ان ضحك ضحكا شديدا

يحيى - يا ابن الزبير - المدينة كانت مهاجر عبد الله بن الزبير أم مهاجر رسول الله . ومن أنت حتى تقول أفسد علينا مدينتنا

وانما بآبائى وآباء هذا (واشار الى الرشيد) هاجر ابوك الى المدينة الى أن قال - ياأمير المؤمنين انما الناس نحن وأنتم فان خرجنا عليكم قلنا أكلتم واجعتمونا . ولبستم واعريتمونا . وركبتم وأرجلتمونا . فوجدنا بذلك مقالا فيكم ووجدتم بخروجنا عليكم مقالا فينا فتكافأ فيه القول ويعود أمير المؤمنين على أهله بالفضل - ياأمير المؤمنين فلم يجترئ هذا وضرباؤه على أهل بيتك يسعى بهم عندك انه والله مايسعى بنا اليك نصيحة منه كان لك وانه يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا انما يريد ان يباعد بيننا ويشتفى من بعض ببعض . والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الىّ هذا حيث قتل أخى محمد فقال لعن الله قاتله وأنشدنى فيه مرثية قالها نحواً من عشرين بيتا وقال ان تحركت فى هذا الامر فأنا أول من يبايعك وما يمنعك ان تلحق بالبصرة فأيدينا مع يدك : عندذلك تغيروجه الزبيرى واسود فلما رأى الرشيد منه ذلك أقبل عليه وقال له أى شئ يقول هذا

الزبيرى - كاذب ياأمير المؤمنين ما كان مما قال حرف فالتفت الرشيد الى يحيى فقال له تروى القصيدة التى رثاه بها

يحيى - نعم ياأمير المؤمنين أصلحك الله

الرشيد - فأنشدها اياه

الزبيرى (مقاطعا) والله ياأمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ما كان مما قال شيء ولقد يقول علىّ ما لم أقل

الرشيد - ليحيى . لقد حلف فهل من بينة سمعوا هذه المرثية منه

يحيى - لا يا أمير المؤمنين ولكن دعنى أباهله واستحلفه بما أريد بين يديك وتصبّر قليلا

الرشيد - قم فصل ركعتين ان رأيت ذلك وقام خصمه وصلى أيضا ركعتين ثم برك يحيى وقال لخصمه ابرك وشبك يمينه في يمينه وقال له قل ما أقول لك

(قل أنا برئ من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوّتى ان كنت قلته)

الزبيرى — يا أمير المؤمنين أى شيء هـذا من الحلف — احلف له بالله الذى لا إله إلا هـو . ويستحلفنى بشيء لاأدري ماهو .

يحيى - ياأمير المؤمنين ان كان صادقا فما عليه ان يحلف بما أستحلفه به

الرشيد ـ للزبيرى . احلف له ويلك

الزبيري يحلف ـ انا برئ من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى (ثم ارعد ولم يتم كلامه) وقال للرشيد يا أمير المؤمنين ما أدرى أى شئ هذه اليمين الذى يستحلفنى بها وقد حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء

الرشيد ـ لتحلفن أو لأصدقن عليك ولأعاقبنك

الزبيري ـ أنا بريء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى ان كنت قلته ـ ثم خرج من عند الرشيد الى منزله وأعيد يحيى الى السجن ـ أما الزبيرى فحدث عنه عبد الله بن عباس الشهير بالخطيب انه بينما أبى آتيا من عند الرشيد فى اليوم الذي حلف فيه الزبيري فدخلت معه البيت أنزع عنه ملابسه من السواد وكان ذلك من عادتى فبينما أنا أحل عنه منطقته إذ دخل عليه الغلام فقال رسول عبد الله بن مصعب (الحالف) فقال أبى أدخله فلما جاء الغلام قال له ماوراءك

الغلام ـ يقول لك مولاي أنشدك الله الا بلغت الى

العباس ـ قل له لم أزل عند أمير المؤمنين الى هذا الوقت وقد وجهت اليك بعبدالله ابنى فما أردت أن تلقيه الى فالقه اليه . وقال

للغلام اخرج فانه يحضر فى أثرك فخرج الغلام ثم التفت العباس الى ابنه وقال انما دعانى ليستعين بى على ما جاء به من الافك فان أعنته قطعت رحمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وان أنا خالفته سعى بى واعلم يابنى انه انما يتدرق الناس بأولادهم ويتقون بهم المكاره فاذهب اليه فكل ما قال لك فليكن جوابك له أخبر أبى وقد وجهتك وما آمن عليك

يقول عبد الله بن عباس فخرجت فى أثر الغلام فلما صرت فى بعض الطريق وانا مغموم بما أقدم عليه قلت للغلام ويحك ـ ما أمره وما أزعجه بالارسال الى أبى فى هذا الوقت الغلام ـ انه لما جاء من دار الامارة فساعة نزل عن الدابة صاح بطنى بطنى ـ يقول عبد الله بن عباس فما حفلت بهذا الكلام من قول الغلام ولا التفت اليه فلما صرنا على باب الدرب وكان لامنفذ له فتح لنا الخدم فاذا النساء قد خرجن منشورات الشعور محتزمات بالحبال يلطمن وجوههن وينادين بالويل والثبور وقد مات الرجل ـ فقلت والله ما رأيت أمراً أعجب من هذا وعطفت دابتى راجعاً أركض ركضاً لم أركض مثله قبله ولا بعده والغلمان ينتظرونني لتعلق قلب أبى بى فلما رأونى مقبلا دخلوا

يتعادون فاستقبلني أبي مرعوبا في قميص ومنديل ينادي ماوراءك يابني - قلت انه قد مات . قال الحمد لله الذى قتله وأراحك وايانا منه فما قطع كلامه حتى ورد خادم للرشيد يأمر أبي بالركوب واياى معه فقال لى أبي ونحن فى الطريق نسير لو جاز أن يدعى ليحيى بنبوة لا دعاها أهله رحمة الله عليه وعند الله نحتسبه ولا والله ما نشك فى انه قد قتل - فمضينا حتى دخلنا على الرشيد فلما نظر الينا قال ياعباس بن الحسن أما علمت الخبر فقال أبي بلى ياأمير المؤمنين فالحمد لله الذى صرعه بلسانه ووقاك الله ياأمير المؤمنين قطع أرحامك فقال الرشيد الرجل والله سليم على ما يحب ورفع الستر فدخل يحيى بن عبد الله وأنا والله أتبين الارتياع فى الشيخ فلما نظر اليه الرشيد صاح به أبا محمد أما علمت ان الله قد قتل عدوك الجبار

يحيى — الحمد لله الذى أبان لامير المؤمنين كذب عدوه علىّ وأعفاه من قطع رحمه. والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلح له وأريده فكيف ولست بطالب له ولا مريده. ولو لم يكن الظفر به الا بالاستعانة به ثم لم يبق فى الدنيا غيرى وغيرك وغيره ما تقويت به عليك أبدا - وهذا والله

من احدى آفاتك (وأشار بيده الى الفضل بن الربيع) والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ثم طمع مني في زيادة تمرة لباعك بها الرشيد - أما العباس فلا تقل له الاخيرا . وأمر له بمائة ألف درهم

١٥

﴿ كتاب من يحيى الى الرشيد ﴾

لما طالت أيام يحيى بن خالد فى سجنه ومن معه كتب الى الرشيد كتابا يستعطفه فأرسل اليه «لامير المؤمنين . وخليفة المهديين . وامام المسلمين . وخليفة رب العالمين . — من عبد أسلمته ذنوبه . وأوبقته عيوبه . وخذله شقيقه . ورفضه صديقه . ومال به الزمان . ونزل به الحدثان . فعالج البوءس بعد الدعة . وافترش السخط بعد الرضا . واكتحل السهاد بعد الهجود . ساعته شهر . وليله دهر . قد عاين الموت . وشارف الفوت . جذعا لموجدتك يا أمير الموءمنين . وأسفا على مافات من قربك . لا على شيء من المواهب . لان الاهل والمال انما كانا لك وبك وكانا فى يدي عارية والعارية مردودة —

وأما ما أصبت به من ولدى فبذنبه . ولا أخشى عليك الخطأ في أمره . ولا ان تكون تجاوزت به فوق حده — تفكر في أمري جعلني الله فداك . وليمل هواك بالعفو عن ذنب ان كان فمن مثلي الزلل . ومن مثلك الاقالة . وانما اعتذر اليك باقرار مايجب به الاقرار حتى ترضى فاذا رضيت رجوت ان شاء الله ان يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى مالا يتعاظمك بعده ذنب ان تغفره ـ مد الله لى في عمرك . وجعل يومى قبل يومك . ثم كتب هذه الأبيات

قل للخليفة ذى الصنيـ * ـعة والعطايا الفاشيه

وابن الخلائف من قريـ * ـش والملوك العاليه

ان البرامكة الذيـ * ـن رمو اليك بداهيه

صفر الوجوه عليهم   خلع المذلة باديه

فكأنهم مما بهم   أعجاز نخل خاويه

عمتهم لك سخطة   لم تبق منهم باقيه

بعد الامارة والوزا   رة والامور الساميه

ومنازل كانت لهم   فوق المنازل عاليه

أضحوا وجل مناهم   منك الرضا والعافيه

يامن يود لى الردى ـ يكفيك منى ما بيه
يكفيك ما أبصرت من ـ ذلى وذل مكانيه
وبكاء فاطمة الكئيبة والمدامع جاريه
ومقالها بتوجع ـ ياسوءتى وشقائيه
من لى وقد غضب الزما ـ ن على جميع رجاليه
يالهف نفسى لهفها ـ ما للزمان وماليه
ياعطفة الملك الرضا ـ عودي علينا ثانيه

فلما قرأ الرشيد الكتاب . لم يرسل اليه بجواب . فكتب يحيي بن خالد كتاباً الى محمد الامين بن الرشيد يستنهضه فيما وعده بالاستشفاع له فقال من أبيات

يا ملاذى وعصمتى وعمادى ـ ومجيرى من الخطوب الشداد
بك قام الرجاء فى كل قلب ـ زاد فيه البكاء كل مزاد
انما أنت نعمة أعقبتها ـ نعم نفعها لكل العباد
وعد مولاك أتممنه فأبهى الد ـ ر ما زين حسنه بانعقاد
ما أظلت سحائب اليأس الا ـ كان فى كشفها عليك اعتمادى
ان تراخت يداك عنى فواقا ـ أكلتنى الايام أكل الجراد

فلما وصل الكتاب الى الامين بعث به الى أمه زبيدة فتقدمت به للرشيد وقت أنسه فلما فرغ الرشيد من قراءته وقّع فى أسفله . عظم ذنبك أمات خواطر العفو عنك . ثم رمى بالكتاب الى زبيدة فلما رأت توقيعه علمت انه لا يرجع عنه فارسل الكتاب الى يحيي فى سجنه فقرأه وكانت أم جعفر بن يحيي (وهي فاطمة ابنة محمد بن الحسين ابن قحطبة) أرضعت الرشيد مع جعفر لانه كان ربى فى حجرها وغذى برسلها لان أم الرشيد ماتت عن مهده وكان الرشيد يشاور أم جعفر ويظهر اكرامها والتبرك برأيها وكان آل (حلف) وهو فى كفالتها أن لا يحجبها ولا استشفعته لاحد الا شفعها . وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه الا مأذونا لها ولا شفعت لاحد لغرض دنيا فلما كان ما كان من قتل جعفر وقدم الرشيد طلبت الاذن عليه فلم يأذن لها فألحت فلم يأذن ولا أمر بشئ فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها محتفية فى مشيتها حتى صارت بباب الرشيد فدخل عبد الملك بن الفضل

عبد الملك — ظئر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد . الى شفقة أم الواحد

الرشيد ـ ويحك ياعبدالملك أوساعيه

عبد الملك ـ نم وحافيه

الرشيد ـ أدخلها ياعبد الملك فرب كبد غذتها وكربة فرجتها وعورة سترتها فأذن لها فدخلت فلما نظر للرشيد اليها داخلة محتفية قام محتفيا حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكب على تقبيل رأسها وصدرها ثم أجلسها معه

أم جعفر ـ ياأمير المؤمنين أيعدو علينا الزمان . ويجفونا خوفا لك الاعوان . ويحردك بنا البهتان . وقد ربيتك في حجري . وأخذت برضاعك الامان من عدوي ودهري .

الرشيد ـ وما ذاك ياأم الرشيد

أم جعفر ـ ظئرك يحي وأبوك بعد أبيك ولا أصفه بأكثر مما عرفه أمير المؤمنين من نصيحته واشفاقه عليه وتعرضه للحتف من شأن موسى أخيه

الرشيد ـ يا أم الرشيد أمر سبق . وقضاء حم . وغضب من الله نفذ .

أم جعفر ـ ياأمير المؤمنين « يمحوا الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »

الرشيد — صدقت فهذا مما لم يمحه الله

أم جعفر ـ الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين. فأطرق الرشيد مليا

الرشيد ـ

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

أم جعفر ـ ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين. وقد قال الاول

وإذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الاعمال

هذا بعد قول الله عز وجل «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»

الرشيد — أقول

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد اليه بوجه آخر الدهر تقبل

أم جعفر ـ يا أمير المؤمنين أقول

ستقطع في الدنيا اذا ما قطعتني يمينك فانظر أي كف تبدل

الرشيد ـ رضيت

أم جعفر ـ فهبه لي يا أمير المؤمنين فأطرق الرشيد مليا

الرشيد ـ لله الامر من قبل ومن بعد

أم جعفر ـ يا أمير المؤمنين «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر

الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »

واذكر يا أمير المؤمنين حلفك لى ما استشفعت الا شفعتنى

الرشيد ـ واذكري يا أم الرشيد حلفك لي ان لا شفعت لمقترف ذنبا . قال سهل بن هارون (الوزير بدل يحيى) وكان حاضرا فى المجلس فلما رأته صرح بمنعها ولاذعن مطلبها أخرجت حقا من زمردة خضراء فوضعته بين يديه

الرشيد ـ ماهذا ففتحت عنه قفلا من ذهب فأخرجت منه ذوائبه وثناياه وشيئاً آخر قد غمست جميع ذلك فى المسك

أم جعفر ـ يا أمير المؤمنين استشفع اليك واستعين بالله عليك وبما صار معى من كريم جسدك وطيب جوارحك ليحيى عبدك فأخذ الرشيد ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى ومر البشير الى يحيى وهو لايظن الا ان البكاء رحمة له ورجوع عنه فلما أفاق رمي جميع ذلك فى الحق وقال لها

الرشيد ـ لحسن ـ ماحفظت الوديعة

أم جعفر ـ وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين ـ فسكت الرشيد وقفل الحق ودفعه اليها

الرشيد ـ (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها)

أم جعفر ـ والله يقول (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) (ويقول وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم)

الرشيد ـ وما ذلك ياأم الرشيد

أم جعفر ـ ما أقسمت لى به ان لا تحجبنى ولا تمهننى

الرشيد ـ أحب ياأم الرشيد أن تشتريه محكمة فيه

أم جعفر ـ أنصفت ياأمير المؤمنين وقد فعلت غير مستقيلة لك ولا راجعة عنك

الرشيد ـ بكم

أم جعفر ـ برضاك عمن لم يسخطك

الرشيد ـ ياأم الرشيد أمالى عليك من الحق مثل الذى لهم

أم جعفر ـ بلى ياأمير المؤمنين أنت أعز علىّ وهم أحب الىّ

الرشيد ـ تحكمى فى ثمنه بغيرهم

أم جعفر ـ بلى قد وهبتكه وجعلتك فى حل منه ـ وقامت عنه غضبى . أما الرشيد فبقى مبهوتا ما يحير لفظة ـ يقول سهل الوزير خرجت ولم تعد ولا والله ما رأيت لها عبرة ولا سمعت لها أنة ـ ومضت الايام والشهور ولم تنفع شفاعة الشافعين ولما دنى من يحيى بن خالد البرمكى أجله وهو فى السجن

ورأى انه ذاهب لا محالة دعا برقعة وكتب بعنوانها ينفذ أمير المؤمنين عهد مولاه يحيى بن خالد وفيها مكتوب وقال للسجان هذا عهدي توصله الى أمير المؤمنين فانه ولى نعمتي وأحق من نفذ وصيتي . فلما احتضر أوصل السجان عهده المختوم الى الرشيد ففضه الرشيد فاذا فيه ـ بسم الله الرحمن الرحيم قد تقدم الخصم الى موقف الفصل . وأنت على الأثر والله حكم عدل ـ فكتب الرشيد بأسفل الكتاب ـ الحكم الذى رضيت به فى الآخرة لك . هو أعدى الخصوم عليك . وهو من لا ينقضى حكمه . ولا يرد قضاؤه ـ فلم يكن بيحيى من حياة حتى يرى الجواب والى الله ترجع الامور ـ وكانت وفاة يحيى بالرقة فى السجن فى شهر محرم سنة ١٩٣ ﻫ وعمره إذ ذاك ٤٥ سنة وجزع الناس عليه وصلى عليه اخوانه فى القصر الذي كانوا فيه قبل اخراجه ثم أخرج وصلى الناس على جنازته وتوفى الرشيد بعده بخمسة أشهر وكان يحيى وهو فى سجنه يلمح بذلك حيث كان يقول ما أحب ان يموت الرشيد فقال له قائل أما تحب ان يفرج الله عنك فكان يقول ان أمري قريب من أمره ومن عرف ان طبيب الرشيد كان قد أخطأ فى مداوته وهم الرشيد بقتله ومات على أثر ذلك بأربع وعشرين

ساعة علم ان الطبيب لم يخطىء وانما انتقم من الرشيد للبرامكة ولعله كان يصرهم بذلك ومن هنا كان يحيى ينبيء بموت الرشيد

***

ذهب آل برمك وذهبت دولتهم واستحال حال من عاش منهم الى أشد درجات الذل والفقر وبلغ من ذلك ان محمد بن غسان صاحب صلاة الكوفه دخل منزله يوم عيد وهو عائد من مصلاه فوجد عند أمه امرأة برزه في ثياب رثة فقالت له أمه اتعرف هذه ؟ قال لا – قالت له أمه هذه أم جعفر البرمكى فما سمع منها هذا حتى أقبل على المرأة بوجهه وحادثها وأكرمها واعتذر لها مما رآى من حالها فقالت له ام جعفر لقد اتى عليّ يابنى عيد مثل هذا وعلى رأسي اربعمائة وصيفة وانى لأعد ابنى عاقا لى ولقد اتي عليّ يابنى هذا العيد وما مناي إلا جلد شاتين افترش احدهما والتحف بالآخري .. فما كان من محمد بن غسان الا ان دفع لها خمسمائة درهم فلما رآتها كادت تموت من شدة الفرح . يقول محمد ولم تزل تختلف الينا حتى فرق الموت بيننا .

(تمت)

اعلان

﴿ مؤلف هـذا الكتاب ﴾

مستعد لتعليم الدروس الدينية والاخلاقية للذكور والاناث بمنازلهم بطريقة عصرية لا تمل

ويشترط فى تعليم السيدات أن يكون إلقاء الدرس لهن من وراء حجاب (اما ستار أو باراقان)

فعلى الذين يحبون تربية أبنائهم تربية دينية أن يبادروا الى تعليمهم تعليما صحيحا ينهض بهم نهضة تحميهم فى مثل هذه الأيام من خطرات الجهل بدينهم الذي ارتضاه الله لهم —

« واذا أراد الله بعبد خيراً يفقهه فى الدين »